العرب
الثلاثاء 2019/09/10
السنة 42 العدد 11463

لماذا يدوّل سعد الحريري مشكلة حزب الله

التدويل يؤمن للحزب موقعا خاصا داخل المشهد الدولي

يثير طلب رئيس الحكومة اللبنانية سعد الحريري أن يتعامل المجتمع الدولي مع حزب الله باعتباره "مشكلة إقليمية" عدة تساؤلات حول أسباب هذا التدويل وحقيقة القول إن حزب الله لا يتحكم في إدارة البلد، وهل حقا هو لا يمسك بقرار الحرب والسلم، وهو الذي يقحم لبنان في مشاريع إيران وأجندتها؟ وهل بتدويل حزب الله يكون الحريري قد أبعد الخطر على لبنان؟

محمد قواص
صحافي وكاتب سياسي لبناني

أزمة لبنانية دولية

لافت جدا أن يخاطب رئيس الحكومة اللبنانية سعد الحريري المجتمع الدولي، معلنا أن مشكلة سلاح حزب الله هي مسألة إقليمية (دولية) وليست لبنانية. وعلى هذا قد يلتقي، بشكل غير مباشر، مع اكتشاف رئيس الجمهورية ميشال عون أن الظروف تغيّرت ولم تعد تستدعي حوارا داخليا للاهتداء إلى الاستراتيجية الدفاعية لحماية لبنان.

لافت أيضا أن حزب الله لم يعلّق على تصريحات الحريري لـ"سي.أن.بي.سي" الأميركية حول ما فُهم أنه تبرؤ لحكومته من سلاح الحزب وسلوكه (المشرّع وفق البيان الوزاري). وأنه إحالة للأمر، وفق ما قد تفسره مواقفه، إلى معالجة كبرى تتجاوز قدرات لبنان وتضعه ربما داخل ملف الصراع الذي تقوده الولايات المتحدة ضد إيران.

يخبر الحريري العواصم المهتمة بشؤون لبنان واستقراره، ودوره واقتصاده، وآبار الطاقة في مياهه، أن حزب الله لا يحكم البلد، لكنه يتحكّم بقرار السلم والحرب فيه.

سعد الحريري

حزب الله لا يدير الحكومة، نحن من يديرها

يبلغ الرجل من يهمه الأمر، بصفته رئيسا لحكومة بلد مستقل ذي سيادة، أن عنوان حزب الله ليس في لبنان، وأن قراره يأتي من خارج البلد، وأن معالجة أمره لا يمكن أن تتم من داخله.

دعوة لتخليص لبنان

لا يُفهم من خطاب الحريري لقناة تلفزيونية أميركية بعد أسابيع من عودته من رحلة مثيرة للجدل إلى الولايات المتحدة إلاّ أن رئيس الحكومة يستدرج تدويلا لمسألة حزب الله، ليس بالمعنى الذي قد يثير الداخل اللبناني، بل بالمعنى الاستراتيجي المتعلّق بما يُرسم هذه الأيام للمنطقة. ولا يُفهم من منطق الرجل إلا دعوة لتخليص لبنان، بكيانه وتياراته ومذاهبه ومؤسساته، من مهمة التصدي لظاهرة تعملقت لأسباب خارجة عن إرادة لبنان، وتتحمل مسؤوليتها سياسات اعتمدها المجتمع الدولي في التعامل مع إيران ونظام "الثورة الإسلامية" هناك منذ أربعة عقود.

على أن ما ينطق به الحريري يختلف في الجوهر عما ينطق به عون. في ثنايا كلام رئيس الحكومة بعض مما تجاهر به بيئته السياسية الصغرى وتلك الكبرى الممتدة بارتباك باتجاه حلفاء الأمس. يعتبر هؤلاء أن سلاح حزب الله يصادر هيبة الدولة ووحدة قرارها في شأن سيادي أساسي، وأنه يعظّم من ثقافة الدويلة ويهدد اللحمة الداخلية ويصدّع الاستقرار الداخلي ويساهم في تفشي مظاهر العبث والفوضى والاستهتار بمؤسسات البلد كما بموقعه في العالم وعلاقاته مع دول العالم.

«مشكلتكم وليست مشكلتنا»

باعتباره مشكلة خارجية، لا يؤمن الحريري بلزومية سلاح حزب الله للدفاع عن لبنان على منوال ما يكرر رئيس الجمهورية ميشال عون.

يرى الأخير أن سلاح الحزب لبناني في أجندته الدفاعية عن البلد وهو جزء بنيوي لا تمرد داخليا عليه، لا بل تتم رعايته من قبل الدولة وحكومتها.

وفيما يتحدث الحريري عن "مشكلة" أن قرار الحرب والسلم في يد حزب الله، لا يرى رئيس الجمهورية ذلك على نحو لا يوجب هذه الأيام أي حوار بيتي لاستحداث استراتيجية دفاعية تنهي ظاهرة سلاح الحزب من خارج منظومة الدولة.

"حزب الله مشكلة إقليمية". وفق ذلك يطالب الحريري بألا يرتبط أمر الجدل حول دور حزب الله من قبل واشنطن وحلفائها بأمر ما يمكن لهذا العالم أن يقدمه لتخليص لبنان من أعبائه الاقتصادية.

وفيما يكثر الحديث عن ربط ثمار مؤتمر "سيدر" وكرم الدول المانحة بشروط معينة متعلقة بما هو مطلوب من الدولة للجم حزب الله والقبض على سلاحه، يرمي الحريري الكرة إلى حضن هذا العالم وتلك الدول المانحة مستخدما لغة بسيطة مفادها أن "الأمر مشكلتكم وليس مشكلتنا".

وعلى أساس تلك المعادلة يطلب الحريري من العالم أن يتعامل مع لبنان بصفته دولة تديرها حكومة يرأسها، وأن لحزب الله حصة برلمانية ووزارية لا تتيح له إدارة البلد، وأن مسألة إمساك هذا الحزب بقرار الحرب والسلم (الذي يمكن بالمناسبة أن يدمر البلد ويطيح بحكومته ومؤسساته)، هي مسألة وجب لهذا العالم التعامل معها، مع التسليم بأن بيروت لا تستطيع في مواجهتها شيئا.

وللمفارقة فإن تصريحات الحريري لم تستفز حزب الله. التدويل الذي تشي به تلك التصريحات يؤمن للحزب موقعا خاصا، ليس داخل المشهد اللبناني المحدود، بل داخل ذلك الدولي الكبير. قد يقرأ الحزب أن مواقف رئيس الحكومة اللبنانية تظهر للعالم أجمع، وهذه المرة بشكل رسمي صادر عن مرجع رسمي، حقيقة أن حزب الله ليس حزبا لبنانيا بل قوة إقليمية داخل لبنان تؤثر في قراراته السيادية، وجب التعامل معه دوليا بصورة مستقلة عن تعامل دول العالم مع لبنان، أو أكثر من ذلك التعامل معه بصفته ملحقا نهائيا ملتصقا بكيانية لبنان القانونية في العالم، وليس حادثة ظرفية مؤقتة يتم تدبيرها داخل منظومات الحكم والسياسة والأمن في لبنان.

وفي الهمّة التي تقودها الولايات المتحدة هذه الأيام بشخص ديفيد شنكر مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأدنى الذي يطل على لبنان (الأربعاء) ما قد يؤسس لقواعد عمل جديدة سترسيها أعراف أميركية في التعامل مع لبنان وحزب الله كحالتين منفصلتين.

تعمل واشنطن على تفعيل وساطتها لإنهاء النزاع الحدودي، البري والبحري، بين لبنان وإسرائيل. وترسل واشنطن موفدها آخذة بعين الاعتبار أن نجاح مهمته يحتاج منطقيا إلى تبديد احتمالات نشوب حرب جديدة تشنها إسرائيل ضد حزب الله في لبنان. ولا يمكن أن تبنى أي استراتيجية جدية لإقفال الملف الحدودي وفتح ملف التنقيب عن الطاقة في المياه اللبنانية وتفعيل ذلك القطاع في منطقة شرق المتوسط إلا بالانكباب جديا على معالجة "حالة" حزب الله.

حسابات داخلية

منذ أيام، وخارج أي سياق، وربما من صلب سياقات ليست ظاهرة، يتنبأ وزير الداخلية اللبناني السابق نهاد المشنوق بأن "لا نفط ولا غاز، من دون الاتفاق الجدّي والحاسم على الاستراتيجية الدفاعية اللبنانية".

ربما في ذلك الموقف حسابات داخلية تنتقد دفن عون لتلك الاستراتيجية بسبب "تبدل الظروف"، وتغمز من قناة لا مسؤولية لبنان عن سلاح حزب الله وفق اجتهادات الحريري الجديدة. إلا أن ورشة الرسم الجارية حاليا لخرائط المنطقة ومسار التوازنات الدولية داخلها، لا يمكن إلا أن تلحظ معالجة ما لظاهرة حزب الله في لبنان.

تدفع إسرائيل بملف مصانع الصواريخ التابعة للحزب، وتتهدد بالنار ممر طهران بيروت الشهير. باتت ورش التنقيب عن الغاز التي تهتم لها واشنطن كما فرنسا وإيطاليا وروسيا ودول البحر المتوسط مفعّلة لإطلاق إحدى أكبر ثروات العالم الجديدة. وتعد ترتيبات للمسألة السورية التي بدا أن التلويح التركي بإعادة دفع اللاجئين إلى أوروبا يعيد إيقاظ العالم عليها. على هذا تتعملق الملفات على النحو الذي يعيد تسليط المجهر على حزب الله ودوره داخل تلك الملفات.

الأمر يتطلب تدويلا، وفق ما يتسرب من تصريحات الحريري، ومع ذلك على لبنان أن يقرر ما إذا كان يريد العالم أن يتعامل معه بصفته دولة مستقلة أم يريد للعالم أن يقبل بأمره الواقع ويتبنى ويرعى وصاية حزب الله عليه كما قبل ورعى وصاية نظام دمشق قبل ذلك.

مشكلة حزب الله الديمغرافية تفسر تحفظه

تغييرات ديمغرافية في المجتمع الشيعي تؤثر على خزان المجندين

بيروت – على مدى الأسبوعين الماضيين، شهدت منطقة الشرق الأوسط تصعيدا بين حزب الله وإسرائيل تابعه كثيرون بقلق خشية أن يتحول الأمر إلى حرب، فيما استبعد آخرون ذلك واعتبروا أن الأمر مجرد تنفيس من الجانبين.

تعددت الأسباب التي أفردها أنصار هذا الطرح بين الانتخابات الإسرائيلية، التي تجعل رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو يتأنى في رده ويخشى الدخول في حرب الآن، وخشية حزب الله، الذي يعتبر جزءا من حكومة وحدة وطنية هشة، من أن يُنظر إليه على أنه جر البلاد إلى حرب مدمرة أخرى مع إسرائيل.

وفي الحديث عن أسباب حزب الله، وما يدعوه إلى الاكتفاء بردود فعل لا تتجاوز حفظ ماء الوجه، كإسقاط طائرة دون طيار وترديد الخطابات الحماسية المهددة، يطرح مركز بجين-السادات للأبحاث والدراسات، سببا آخر لتقييد حزب الله لحدّة رده ينبش في عمق الحزب. يتحدث المركز عن أزمة ديمغرافية تضرب حزب الله. يلفت معد الدراسة هلال فريسش النظر إلى الأرقام التي تتحدث عن تراجع مستوى الولادات في المجتمع الشيعي بشكل عام، ويركز أساسا على لبنان وإيران باعتبارهما القاعدة الجماهيرية التي يخاطبها حزب الله.

ويقول فريسش "لا يعتبر المجتمع الشيعي صغيرا فحسب (بين مليون و1.5 مليون شخص)، لكنه يعاني من انخفاض سريع في معدلات الولادات مثل إيران، وهي الدولة الكبيرة الوحيدة ذات الأغلبية الشيعية".

وانخفض معدل المواليد بين الشيعة من خمسة وستة أطفال لكل امرأة في سن الإنجاب في الثمانينات إلى أقل من 2.05، وهو المعدل اللازم للحفاظ على نسبة السكان الحاليين بعد مرور خمس وعشرين سنة.

بطبيعة الحال، يحمل ذلك العديد من المخلفات. ويشرح فريسش ذلك من خلال فكرة التجنيد، مشيرا إلى أن الأسر ستصبح مترددة في التضحية بابنها الوحيد في مجتمع أصبح فيه عدد الأطفال لا يتجاوز 2 أكثرها أهمية بالنسبة لحزب الله.

وكان لمشاركة حزب الله في الحرب الدائرة في سوريا ومقتل عدد كبير من المجندين الشباب أثر كبير في نفوس العائلات في لبنان، خاصة وأن حمل التكفل بمصاريف عائلات هؤلاء المجندين أصبح يثقل كاهل الحزب.

ويقول فريسش إن حزب الله ضحى بالشيعة لـ37 عاما، وتوقف لفترة قصيرة دامت خمس سنوات وامتدت بين حرب لبنان سنة 2006 (حرب تموز) واندلاع الحرب الأهلية السورية سنة 2011.

ويضيف أن الدائرة الضيقة لحزب الله والمقتصرة على الشيعة تضيق عليه الخناق وتجعل من الأزمة الديمغرافية مأزقا.

ولطالما كان حزب الله على خلاف، يصل أحيانا إلى درجة العنف، مع الجالية السنية في لبنان وخاصة في مدينة طرابلس، حيث ساند حزب الله الأقلية العلوية الصغيرة المدعومة من سوريا ضد الأغلبية السنية بناء على طلب من النظام السوري منذ سنة 1984.

واتسعت الفوهة التي تفصل بين حزب الله والسنة مع قمع المنظمات الأصولية والحركات السياسية السنية. وتوج هذا الصراع باغتيال رئيس الوزراء السني رفيق الحريري سنة 2005.

وتعتبر العلاقات التي تجمع الحزب مع جل الطوائف المسيحية والدرزية متوترة بنفس القدر، على الرغم من نجاح حزب الله في التحالف مع الرئيس الماروني ميشال عون ومؤيديه.

يعني كل ذلك اقتصار خطط التجنيد التي يعتمدها حزب الله على جذب المجتمع الشيعي في لبنان.

في المقابل، تبدو إسرائيل أفضل في هذا الجانب، ففي كل سنة، يحدد جيش الدفاع الإسرائيلي المدارس الثانوية التي سجّلت أعلى نسب من الخريجين الذكور الذين يمكن أن يتطوعوا في الجيش. ويتمثّل القاسم المشترك بين المجندين في أن هؤلاء ينتمون إلى أسر كبيرة. وعادة ما تكون المدارس دينية.

هلال فريسش

تراجع خزان المجندين نتيجة انخفاض عدد المواليد يقلق حزب الله

أما بالنسبة لحزب الله فتصعب مواصلة الاستراتيجيات القائمة على التضحية.

وأصبح يتعين على إيران العمل لإقناع الشيعة من غير الإيرانيين بخوض معاركها بعد خسارة مئات الآلاف من أبنائها في حربها الطويلة مع العراق التي اندلعت منذ أكثر من ثلاثين عاما. ويشبه هذا ما شهده الإسرائيليون في 1973.

ويواجه حزب الله مشكلة مماثلة، ولا يستطيع مواجهتها بسهولة حيث يعتبر انخفاض عدد المواليد من نتائج التحضر. اليوم، يعيش معظم الشيعة اللبنانيين في المباني السكنية متعددة الطوابق في الضاحية الجنوبية، ولم يعودوا متمركزين في القرى والبلدات الصغيرة التي خرجوا منها في الانتخابات للتصويت لحزب الله.

في المدينة، لم يعد الأطفال يساعدون في مزارع عائلاتهم، وأصبحوا مستهلكين مما قلص نسبة المنتجين. يريد آباؤهم أن يكونوا متعلمين، ويفضلون رؤيتهم في كندا أو أستراليا بدلا من إرسالهم لخوض حروب إيران في سوريا والعراق واليمن.

كما يعلم الأمين العام لحزب الله حسن نصرالله أن خزان المجندين المتراجع أصبح مطلوبا أكثر في الجبهة الداخلية. ويخلص فريسش إلى القول إن حزب الله دفع دماء مقاتليه ثمنا لدعم النظام السوري.

وأصبح يواجه مستقبلا أكثر غموضا في لبنان نفسه نتيجة لتحركاته في الحرب الأهلية السورية. وفي مثل هذه الظروف، يعدّ التحفظ وضبط النفس استجابة معقولة.